ك

وَمْضَةٌ



قصّة: عمرو أبو حميدان

رسومات: علي الزّيني

تدقيق: أرب عفيفي

لِأَنَّ الْكَوْنَ واسِعٌ وَمُظْلِمٌ... مُزَخْرَفٌ بِوَمَضاتٍ مِنَ الْأَمَلِ هُنا وَهُناكَ.

هذِهِ الْقِصَّةُ مُهْداةٌ لِيوسُفَ الَّذي أَلْهَمَنا كِتابَتَها.

بَدا صَباحًا كَكُلِّ صَباحٍ، إلّا أَنَّهُ كانَ أَكْثَرَ بُرودَةً وَكَآبَةً! أَلْقَتْ عائِلَةُ يوسُفَ النَّظْرَةَ الْأَخيرَةَ عَلى الْبَيْتِ الَّذي أمْضَوا فيهِ ٥ (خَمْسَ) سَنَواتٍ جَميلَةٍ، بَيْنَما أَغْلَقَ أَبو يوسُفَ الْبابَ، وَسَلَّمَ الْمِفتاحَ لِمالِكِ الْمَنْزِلِ.





انْطَلَقَتِ الْعائِلَةُ في رِحْلَتِها إلى الْمَنْزِلِ الْجَديدِ، بَيْنَما نَظَرَ يوسُفُ مِنْ نافِذَةِ الْمَرْكَبَةِ إلى عالَمٍ كَئيبٍ وَشاحِبٍ لَمْ يَرَهُ مِنْ قَبْلُ!

البيتُ الجديدُ لم يكنْ أقلَّ كآبةً، كانَ باردًا ومظلمًا، ظهرَ مُتداعيًا كعجوزٍ هَرِمٍ يكادُ يغفو مُتّكًأ على عصاهِ.



بَدَتِ التَّعاسَةُ عَلى وَجْهِ يوسُفَ، بَيْنَما تَجَهَّزَ لِلْمَدْرَسَةِ في الْيَوْمِ التّالي... لَمْ تَكُنْ قُبْلَةُ أُمِّهِ وَوَعْدُ أبيهِ؛ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَكونُ عَلى ما يُرامُ، كافِيَيْنِ لِقَتْلِ الْبَرْدِ وَالْخَوْفِ في داخِلِهِ.





لَمْ تَكُنِ الْمَدْرَسَةُ أَقَلَّ شُحوبًا مِنْ ذلِكَ الْمَنْزِلِ! وُجوهٌ شاحِبَةٌ غَريبَةٌ راقَبَتْ كُلَّ حَرَكاتِهِ، بَيْنَما شَقَّ يوسُفُ طَريقَهُ إلى صَفِّهِ.

فِي طَريقِ عَوْدَتِهِ إلى الْمَنْزِلِ، وَجَدَ يوسُفُ قِطًّا هَزيلًا عَلى ناصِيَةِ الطَّريقِ، يَكادُ يَموتُ مِنَ الْجوعِ... شارَكَهُ يوسُفُ ما تَبَقّى مِنْ شَطيرَتِهِ... راقَبَ يوسُفُ الْقِطَّ وَهُوَ يَلْتَهِمُ الشَّطيرَةَ بِنَهَمٍ.



حالَما أَنْهى الْقِطُّ طَعامَهُ، تابَعَ يوسُفُ مَسيرَهُ، إلّا أَنَّ الْقِطَّ ظَلَّ يُلاحِقُهُ... لَمْ يُمانِعْ يوسُفُ، بَلْ وَجَدَ في رِفْقَةِ الْقِطِّ سَلْوَةً لِوَحْدَتِهِ.





فَجْأَةً بَدَأَ الْقِطُّ بِالْمُواءِ، وَكَأَنَّهُ يَدْعو يوسُفَ لِيَلْحَقَهُ، وَقَفَزَ خَلْفَ أَحَدِ الْأَحْراشِ... تَبِعَهُ يوسُفُ... مَشى الاثْنانِ حَتّى وَصَلا جَدْوَلًا مِنَ الْماءِ... كانَ الْجَدْوَلُ مُخْتَبِئًا بَيْنَ الْأَشْجارِ وَمُتَعَرِّجًا، كَأَنَّهُ يُحاوِلُ التَّخَفِّيَ مِنْ نَظَراتِ الْبَشَرِ.



جَلَسَ يوسُفُ يُراقِبُ الْجَدْوَلَ، بَيْنَما الْتَفَّ الْقِطُّ في حِضْنِهِ. أَحَسَّ يوسُفُ بِدِفْءٍ غَريبٍ، وَأَصْبَحَتِ الْأَحْراشُ أَقَلَّ شُحوبًا وَأَكْثَرَ زَهْوًا، وَكَأَنَّ رَسّامًا مَسَحَ بِفُرْشاتِهِ عَلَيْها.

عادَ يوسُفُ إلى الْمَنْزِلِ مُتَرَدِّدًا... لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ عَلى مَدْخَلِ ذلِكَ الْبَيْتِ الْموحِشِ، الَّذي إذا نَظَرْتَ إِلَيْهِ ظَنَنْتَ أَنَّهُ يَطْلُبُ مِنْكَ الرَّحيلَ.





دَخَلَ يوسُفُ الْمَنْزِلَ، وَما إنْ أَطَلَّ بِرَأْسِهِ عَلى غُرْفَةِ الطَّعامِ، وَجَدَ مائِدَةً دافِئَةً زاهِيَةً عَلَيْها كُلُّ ما يُحِبُّ مِنَ الطَّعامِ...



انْضَمَّ يوسُفُ إلى الْعائِلَةِ، حَيْثُ كانَ يَغوصُ بَيْنَ كُلِّ جُمْلَةٍ وَأُخْرى في طَبَقٍ مِنْ أَطْباقِهِ الْمُفَضَّلَةِ، بَيْنَما طَفا الْحَديثُ الَّذي تَبادَلَتْهُ الْعائِلَةُ كَأَنَّهُ موسيقى أَضْفَتْ فَرَحًا على الْمَكانِ.



جَرَّ يوسُفُ نَفْسَهُ في الْيَوْمِ التّالي إلى الْمَدْرَسَةِ... لَمْ يَكُنْ يُريدُ أَنْ يُمْضِيَ دَقيقَةً واحِدَةً في تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ الشّاحِبَةِ...
كانَ يُراقِبُ مِنْ حَوْلِهِ الْعُيونَ الشّاحِبَةَ تُحَدِّقُ فيهِ، بَيْنَما كانَ يَمشي مُسرِعًا إلى الْمَدْخَلِ لِيَتَّقِيَ الْمَطَرَ.



كانَ هُناكَ شُعورٌ مُخيفٌ يَتَصاعَدُ داخِلَ يوسُفَ، كَأَنَّهُ فُقّاعَةٌ تُحاوِلُ الْخُروجَ! بَدَأَ بِالرَّكْضِ حَتّى تَعَثَّرَ.



أَحَسَّ يوسُفُ بِبَرْدٍ رَهيبٍ يَحْتَضِنُهُ، بَيْنَما اسْتَلْقى عَلى ظَهْرِهِ يَنْظُرُ إِلى السَّماءِ الَّتي كانَتْ تَجْلِدُهُ بِمَطَرِها...



أَطَلَّ وَجْهٌ شاحِبٌ حَجَبَ السَّماءَ مِنْ فَوْقِهِ، وَأَحَسَّ يوسُفُ بِأَنَّهُ عاجِزٌ عَنِ الْحَرَكَةِ.



”مَرْحَبًا... أَنا اسْمي عُمَرُ، أَرى أَنَّكَ قَدْ تَعَثَّرْتَ! هَلْ تَحْتاجُ إلى مُساعَدَةٍ؟“ وَفاجَأَتْهُ يَدٌ امْتَدَّتْ لِتَنْتَشِلَهُ مِنَ الْأَرْضِ. لَمْ يَعُد ذلِكَ الْوَجْهُ شاحِبًا، وَأَصْبَحَ الصَّفُّ أَكْثَرَ دِفْئًا، بَيْنَما تَبادَلَ يوسُفُ وَعُمَرُ الْقِصَصَ، وَهُما يَتَناوَلانِ شَطائِرَهُما خِلالَ الاسْتِراحَةِ.



عادَ يوسُفُ إلى مَنْزِلِهِ بَعْدَ مُرورٍ سَريعٍ عَلى مَكانِهِ السِّرِّيِّ... تَناوَلَ الْعَشاءَ مَعَ عائِلَتِهِ، وَأَنْهى واجِباتِهِ الْمَدْرَسِيَّةَ.



وَبَعْدَ أَنْ أَطْفَأَ ضَوْءَ غُرْفَتِهِ لِيَخْلُدَ إلى النَّوْمِ، دُقَّ بابُ غُرْفَتِهِ، وَتَسَلَّلَ أَبوهُ إلى سَريرِهِ... "هَلْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَنْضَمَّ إلَيْكَ؟ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَنامَ؛ فَأَنا ما زِلْتُ أُحاوِلُ الاعْتِيادَ عَلى النَّوْمِ في هذا الْبَيْتِ الْجَديدِ"... "طَبْعًا بابا".



اسْتَلْقى الاثْنانِ عَلى السَّريرِ، يُراقِبانِ النُّجومَ مِنْ نافِذَةِ الْغُرْفَةِ... "أَتَعْرِفُ بابا؟ أُحِسُّ بِأَنَّني بَدَأْتُ أُحِبُّ هذا الْمَكانَ؛ لَمْ يَعُدْ شاحِبًا كَما كُنْتُ أَراهُ مِنْ قَبْلُ". ابْتَسَمَ أَبو يوسُفَ، مُشيرًا إلى السَّماءِ... "كُلُّنا يَمُرُّ في هذا الشُّعورِ بَيْنَ الْحينِ وَالْآخَرِ...

لِأَنَّ الْكَوْنَ واسِعٌ وَمُظْلِمٌ... مُزَخْرَفٌ بِوَمَضاتٍ مِنَ الْأَمَلِ هُنا وَهُناكَ

نَصْنَعُها بِأَنْفُسِنا

النِّهايَةُ